المواقف السياسية لنزار قباني
دراسة سيميائية تأويلية لنماذج مختارة من شعره

سكينة زواغي
قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار عنابة، dr.sakina23@gmail.com

تاريخ الإيداع:2015/05/24 **تاريخ المراجعة:** 2016/02/01 **تاريخ القبول:** 2016/04/14

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الإبانة عن الجانب السياسي في بعض النماذج الشعرية لنزار قباني، شاعر التمرد والثورة والسياسة. عبّر بموضوعية عن هموم شعبه ومحنه السياسية بقصائد لا تقل أهمية عن شعره في الحب والمرأة. ومن أجل استكشاف المواقف السياسية في شعره وجب التذرّع بالمنهج السّيميائي بغاية تحسّس العلامات وأبعادها ووضعها في سياق تأويلي كاتّجاه في الحقل السّيميائي المعاصر.

الكلمات المفاتيح: نزار قباني، شّعر، مواقف سّياسيّة، علامة، دّال، مدلول، سّيميائيّة.

Political positions of *Nizār Qabbānī*
Interpretative semiotic study of some of his poems

Abstract

This study aims to describe the political views in some poems of Nizār Qabbānī, poet of revolt, revolution and politics. He was able to express the misfortune of his people, his political crisis through poems that are not less than those about love and woman. In this sense and in order to discover his political positions in his poetry, we have used semiotics in order to enter the signs and its sizes and to put them in an interpretative context which represents an emerging trend in the field of contemporary semiotics.

Key words: ***Nizār Qabbānī, poetry, political positions, sign, signified, signifier, semiotics.***

Les positions politiques de Nizār Qabbani
Etude sémio-interprétative de quelques extraits de ses poèmes

Résumé

Cette étude a pour objectif de désigner les aspects politiques dans certains textes poétiques de Nizār Qabbani, poète de la révolte, de la révolution et de la politique. Ce dernier a pu exprimer les malheurs de son peuple, ses crises politiques à travers des poèmes qui ne sont pas moins importants que ceux sur l'amour et la femme. Dans ce sens et afin de découvrir ses positions politiques dans sa poésie, nous avons eu recours à la sémiotique dans le but de saisir les signes et leurs dimensions, et de les mettre dans un contexte interprétatif qui constitue une nouvelle tendance dans le champ de la sémiotique contemporaine.

Mots-clés: Nizār Qabbani, poésie, positions politiques, signe, signifié, signifiant, sémiotique.

المؤلف المرسِل: سكينة زواغي، dr.sakina23@gmail.com

مقدمـــة

لفت انتباهي وأنا أتصفح مدونة نزار قباني الشعرية مجموعة من القصائد تنطوي على موضوعات سياسية مختلفة لا تقل أهمية عما بلغته قصائده في الحب والمرأة التي دامت ما يقارب نصف قرن من الزمن. غير أن المتمعن في قصائد نزار السياسية يكتشف أنّها تضمر عدة أمور أولها: يتمثل في تعدد موضوعاتها السياسية، وثانيها: ترتبط هذه الموضوعات بوقائع جسام من تاريخ الأمة العربية وثالثها:– وهو الأكثر أهمية –تحتوي القصائد على جملة من المواقف السياسية كان لها صدى قويا داخل الوطن العربي وخارجه، وقد تضمنت المواقف السياسية مجموعة من الأفكار والرؤى الصارمة التي تلقى على إثرها الشّاعر ردّات فعل حادة وهجمات عنيفة وتهافت نقدي من قبل النّقاد والقرّاء وحتّى السّاسة، بسبب جرأته المتميّزة في الطرح وموضوعيّته في تحديد وجهة نظره فيما يتعلق بمتغيرات الأحداث السياسية. وكانت في مجملها عبارة عن أفكار، ورؤى وقناعات، ومبادئ آمن بها الشاعر ودافع عنها حتى آخر رمق في حياته.

ترى ما هي هذه المواقف السياسية؟ وما الذي يمكن أن نصطلح عليها؟ ثم ما هي الطروحات والرؤى التي تضمنتها المواقف؟ وهل تجاوز فيها الشاعر حدود الأبجديات الأيديولوجية؟ ثم ما الذي خرقه نزار في سبيل إعادة هيكلة واقع السياسة العربي؟

يعدّ شعر نزار قبّاني السّياسي علامة واضحة في عالم الأحداث السياسية ومرآة لكل مرحلة تمر بها الأمة العربية ولقد «انبرى نزار كعادته ليؤرخ لنا الواقع العربي من خلال لغته الشعرية المتميزة»[1] ويكشف الحقائق ويدافع عن مقومات الأمة العربية متصديا لأنظمة الحكم ووصفها بالفاشلة، « وحين نطالع الملف السياسي لقصائد نزار قباني– ذلك الملف الذي استغرق إعداده حوالي ثلاثين عاما– نستطيع من خلاله أن نصنف الشاعر سياسيا، وأن نضع أيدينا على ملامح الفكر السياسي لدى نزار رغم أنه... لم يكن زعيم حزب أو عضوا في منظمة ولم يعرف ولاؤه ولا انتماؤه لأي من التيارات السياسية في الوطن العربي»[2]. لم يكن نزار تابعا لأحد إلا لمصلحة حرية الفرد، الاجتماعية والسياسية لأنّ استقراره مرتبط كليا بانضباط المجتمع وتحقيق ولو قدر قليل من العدالة الاجتماعية.

وقد ارتأيت التركيز أولا على قصيدة "هوامش على دفتر النكسة" التي كانت بمثابة المعايشة الحقيقية والترجمة الفعلية لهموم الأمة العربية، فهي تمثل هزيمة العرب أمام إسرائيل وقد جاءت متضمنة جملة من المواقف السياسية انفجرت كحمم بركانية ملؤها الغضب «إذ لم يبق بعد حزيران للشاعر سوى حصان واحد يمتطيه هو الغضب»[3] كانت هذه القصيدة آنذاك بمثابة العبوة الناسفة إذ هوجم الشاعر على إثرها هجوما عنيفا بسبب مواقفه الجريئة التي تضمنتها؛ ولأن هذا المقام لا يتسع لذكرها ككل فقد وقع اختياري على المواقف الأكثر بروزا في القصيدة، منها ما يدخل ضمن حيّز الرّفض والغضب وهو الموقف الأول؛ وقد جاء مؤسسا على جملة من القناعات والمبادئ. وأما الموقف الثاني فيتعلق بتعرية الذات العربية ومواجهتها بنقاط سلبيتها تجاه ما يحدث. وأما الثالث فيتمثل في الثورة على الحكام والمطالبة بالتحرر من ضغط الجهاز الحاكم وسيطرته على الوضع وأما الموقف الرابع والأخير فقد تضمنته قصيدة أخرى بعنوان: "أحمر أحمر أحمر" وتضمنت التنديد بقمع حرية الفكر والتعبير وخلق فضاء شاسع من الحريات.

1- السّيميائيّة بين الإجراء والتّطبيق:

حرصا على اكتمال الرؤية النقدية لهذه المواقف يجب أن تخضع لمنهج نقدي وهو المنهج السيميائي؛ لأن أية قراءة يجب أن تطعم بمنهج يزكيها ويفعّلها ويحاور أغوار النّص ويضبط قراءته وتأويله ويقوده بطريقة أنجع نحو نتائج أكثر موضوعية. وبما أن لغة الشعر هي لغة عدول وانزياح ورموز وإشارات فإن قراءته لا يمكن أن تقف عند الحدود الظاهرة منه؛ وإنما يجب أن نستنطقه ونفكك رموزه ونفجّر علاماته «ولذا فنحن مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى وبخاصة أننا نشهد تطور النظريات النقدية الحديثة وما يصاحبها من اتساع في نظرية المعرفة لمحاولة استثمار (الدال الحاضر) لإحضار (المدلول الغائب) وأن نتجاوز المقول بحثا عن المسكوت عنه لتكتمل الرؤية النقدية باستحضار قطبي الإشارة(...) الدال والمدلول»[4]. اللذين يتمثلان في العلامة التي هي أولى الخطوات الإجرائية التي يعتمدها المنهج السيميائي الذي تم اختياره لهذه الدراسة،

لماذا المقاربة السّيميائيّة؟

إضافة إلى ما بلغته السيميائية من اهتمام بالعلامة ودلالتها ومدى تطور علاقاتها داخل النّصّ فهي: «منهج داخلي محايث ويعني ذلك أنه يرتكز على داخل النص»[5]. يعني ذلك أن اهتمام السيميائية أمر منصب حول النص وبنائه الداخلي ونظام علاقاته وهو أمر في غاية الأهمية، ولعله واحد من أهم الأسباب التي جعلتها تحقق رواجا كبيرا وانتشارا لا حدود له فيما يتعلق بتحليل النصوص «وكنتيجة لهذه الخاصية فإن السيميائية تنعت بأنها نصية»[6]. ولذلك ارتأيت في هذا المقام أن أركز على النّص لا غير باعتباره ظاهرة أدبية دالة وزاخرة بالعلامات. كما أنه يتصف في أغلب الأحيان بأنه متمنّع وعصيّ على الفهم وذو طبيعة زئبقية فكلما اقتربنا منه وتيقنا أننا طوقناه وأجهزنا عليه قراءة وتحليلا، أفلت من بين أيدينا وخرق أفق توقعنا، وعاد ليجدّد خلايا بناه الداخلية ويظهر في زيٍّ جديد حتى يتراءى لنا أنّنا نقرأه للمرة الأولى، «فما يطلق العنان للدّلالة هو نفسه ما يجعل توقعها أمرا مستحيلا فالشّيء ذاته علامة»[7]. والعلامات بطبعها متحولة وليست ثابتة تجنح دائما نحو من يحررها ويفك قيدها ويؤولها؛ لأن «العلامة شيء تفيد معرفته معرفة شيئا آخر»[8]. إن العلامات نوافذ تفتح من خلالها آفاق الدلالة، وتتدرج ضمنها تأويلات النص الشعري. «وإذا حاولنا اليوم قراءة الشعر قراءة سيميولوجية فإننا نهدف إلى تحرير النص من قيوده المفروضة عليه وهذه عملية تكرارية يحدثها الشاعر أولا بتحرير الكلمات من قيودها وهذا حدث تلقائي غير واع وهو من مظاهر الإبداع الفني والقدرة عليه تختلف فيه من شاعر إلى شاعر»[9] مثلما تختلف القدرة في تحليل النص من قارئ إلى قارئ ومن منهج إلى منهج. ولكي تكون هذه الدراسة مؤسسة من الوجهة المعرفية على رؤية علمية واضحة يجب أن نستعين ببعض الآليات المنهجية التي اعتمدتها الدراسات النقدية السيميائية وروجت لها، ومن بينها آلية التأويل، إذ لا تمظهر حقيقي للسّيمياء من دون حضور نشاطات وفعاليات آليات التأويل المشحوذة على نحو معرفي وذوقي ومزاجي عالي المستوى وهي تمثل الأدوات الإجرائية التي تكون لها القدرة على الخوض في غمار النصوص والظواهر وفك شفراتها الجمالية»[10].

فالسّيميائية هي ضرب من ضروب القراءة والتأويل، شرط ألاّ ينأى القارئ بمقاربته التأويلية عن حدود السّياق العام للنّصّ؛ إذ يسهم التّأويل في اتّساع دائرة الفهم في أثناء تتبع الدوال والإشارات والشفرات والعلامات؛ لأن فعاليتها النصوصية أمر مقرون بفكها وتحليلها و«خلاص النص يكون بفتح حدود عناصره وإطلاق هذه العناصر على أنها إشارات حرة تم إعتاقها من السالف والحاضر؛ أي من شروط الواقع المعرفى ...فتوجهت حرة لتشكيل

واقعها المنصوص المتجدّد وهذا لا يعني فقط رفع قيد الظرف المعجمي أو البيئي كمتحكّم مطلق يقرّر الدّال ويصوغ مدلوله»[11].

من العناصر الأساسية التي يقتضي أيضا الوقوف عندها إثر عملية التحليل السيميائي للنصوص الأدبية هي العلامة وهي أهم المبادئ التي عنيت بها السيميائية. وما يجب الإشارة إليه أن العلامة في النص ترد كلمة كما ترد جملة، يقول منذر عياشي: «فكل شيء قابل لأن ينظر إليه بوصفه علامة وأن تنضيد الجمل في أبيات (إطراد مقطعي، تكرار صوتي، أو بكل بساطة ترتيب خطي معين)؛ إنما هو علامة دالة، وكذلك فإن حضور الجمل الطويلة ليعد علامة(...) وإن كل شيء يمكن أن يلاحظ وأن يحدد فهو قابل لكي يصبح علامة»[12]. أما عن ماهيتها فتتكون من جزئين هما الدال والمدلول، ومن وجهة نظر بيرس فإن «كل علامة لا تكون إلا ثلاثية وهي لا تشكل علامة إلا إذا توفرت على العناصر الثلاثة التالية: "الممثل الأول"، و"الموضوع الثاني"، و"المؤول الثالث"» [13]. ومن هذا المنطلق عرف جاكبسون Jakobson كل علامة على" أنها علاقة إرجاع، والعلامة من وجهة نظر بيرس شيء من خلال التعرف عليه نعرف شيئا إضافيا وتبعا لهذا فإن العلامة توجيه للتأويل وآلية تقود إلى جميع الاستنتاجات التأويلية الأبعد شأوا"[14].

وفي ضوء هذه المعطيات تأتي مقاربتنا السيميائية لمواقف نزار السياسية التي صيغت بمضامين شعرية أهّلته لأن يكون سفير القضايا العربية والصراعات الإيديولوجية، التي أفرزت مجموعة رؤى وفلسفات ووقائع؛ إذ لطالما كانت «هموم الواقع وقضاياه الملحة قادرة على مهاجمة قلوب الشعراء حتى ولو نسجوا لهم بيوتا في الغيوم فكيف والشاعر مهما غيّر لا بد أن يؤوب إلى واقعه، وأن يتفاعل مع هذا الواقع، ثم إن معالجة الشعراء لقضايا واقعهم الاجتماعي والقومي لا تذهب سدى فهي تكسبهم دائما لأنها تقربهم وتقرب شعرهم من الناس والحياة» [15]. وبما أن الشاعر كائنا ما كان هو ابن بيئته وصدى مجتمعه في كل زمان ومكان، فلن يستطيع إلا أن يكون المجهر لأحداث ومتغيرات مجتمعه وأن يرسم بكلماته وحدود لغته مختلف قضايا أمته لأن اللغة كما يقول جاكبسون jakobson هي التي تحفظ كيان الأمة وتحقق قوميتها وتكاد ترسم حدودها، إنها قد تصبح الوطن الذي نسكنه والروح الجماعي الذي نحيا به»[16].

2- سيميائية المواقف السياسية:

الموقف الأول: موقف الرفض والغضب: ويتجلى من خلال المقطع الآتي من القصيدة:

لاَ تَلْعَنُوا السَّمَاءَ
إِذَا تَخَلَّتْ عَنْكُمْ
لاَ تَلْعَنُوا الظُّرُوفَ
فَاللهُ يُؤْتِي النَّصْرَ مَن يَشَاءُ
وَلَيْسَ حِدادًا لَدَيْكُمْ
يُوجِعُنِي أَنْ أَسْمَعْ الأَنْبَاءَ فِي الصَّبَاحِ
يُوجِعُنِي..
أَنْ أَسْمَعْ النُّبَاحَ...
مَا دَخَلَ اليَهُودَ مَنْ حُدُودِنَا
وَإِنَّمَا..

تَسَرَّبُوا كَالنَّمْلِ مِنْ عُيُوبِنَا [17]

تتجه دلالة المشهد الشعري في هذا المقطع باتجاه الرفض الذي يتجسد في علامة محورية واضحة تتصدر الجملة الأولى من المقطع وتتمثل في" أداة النهي "المتمثلة في" اللام"، ولأن كل علامة تتكون من دال ومدلول «وكل دال بدون مدلول لا يعتبر شيئا ذا معنى وكذلك العكس أي المدلول»[18]، فإنه ينبغي أن نبحث عن مدلول "اللام "التي تصدرت بداية المقطع.

تعدّ اللام الناهية البؤرة الأساسية المولدة لكل الدلالات والإيحاءات التأويلية داخل مدار الغضب والرفض، إنها تطرح حيزا من الرفض كمدلول متعدد الأبعاد وتعبر عن شخصية الأنا التي تتصدى لردة فعل ضمير الجماعة المتمثل في" الواو "و" الألف "في عبارة (لا تلعنوا السماء). وتتمثل قوة الموقف في الرفض المناهض لكل معاني السلوكيات السلبية التي تراكمت عقب حدوث النكسة، كما تنزاح أداة النهي إلى ما يشبه المعاتبة الجريئة والاستخفاف بضعف الذات العربية التي تسارع إلى التواكلية وتحميل غيرها نتائج فشلها، إذ يشنّ الشّاعر «حملة شعواء على التواكلية عند الإنسان الشرقي والعربي على وجه الخصوص فهو دائما غير منطقي مع الأشياء ومع نفسه، إذا حقق النجاح أرجع ذلك إلى عبقريته الفذة، وإذا فشل أرجع الفشل للأقدار والظروف غير المواتية وسوء الحظ الذي يلازمه، لذلك يقول للعرب لا ترجع الهزيمة للظروف غير المواتية ولا تلعنوا الأقدار ولا تعتبوا على السماء التي تخلت عنكم فالله ليس طوع أمركم أو رهن إشارتكم فالله يؤتي النصر من يشاء»[19].

يحمل مقوم الرفض معاني كثيرة غير التواكلية والفشل، وتأتي في شكل رسائل مقتضبة باتجاه الذهنية العربية بقصد تطهيرها حتى تسترجع قدرتها على استيعاب حقائق الأشياء استيعابا منطقيا وموضوعيا، وعدم التمركز حول لحظة دائرة الفشل واعتبارها نهاية درامية لواقع سياسي مأساوي لا يمكن تغييره نحو الأفضل، بل الأرجح التوجه بالذات نحو شيء من التحدي وتضميد مواطن الألم ومحاولة التغلب على فجائع الزمن، وتحويل الحاضر البائس إلى مستقبل مفرح، وتجاوز الأزمة؛ لأن النكسة في حقيقتها شقان؛ شق سياسي وهو ما تعلق بانهزام العرب أمام العدو الإسرائيلي، وما ترتَّب عنه من خسائر مادية ومعنوية، وشق نفسي وهو ما يتعلق بالإحباط السيكولوجي الذي أثر أيما تأثير على باطن الذات العربية وجعل ردة فعلها ردة سلبية تجاه الأحداث الراهنة.

يتضمن الرفض أيضا نوعا من الاستخفاف بالذات العربية ويظهر ذلك في النباح باعتباره قرينة الكلاب إذ مثل الشاعر لحظة تلقي العرب الفجيعة أي النكسة التي قصمت ظهر الجميع بنباح الكلاب التي تستشعر بقدوم ما يقلقها ويثير روعها وفزعها، ويعمد الشاعر إلى هذه الكناية باعتبارها تقنية بلاغية ناجعة في تبيان سلبية مستوى الوعي الفكري للفرد العربي.

وفي زاوية أخرى من زوايا المقطع تتجلى علامة أخرى نافية ومؤكدة في أن واحد لما تنفيه؛ تتمثل في الأداة "ما" في قوله: "ما دخل اليهود من حدودنا". وفي إطار الوقوف على ما يتطلبه هذا النص من آليات تحليل فإنه لا ضير من الاستعانة بآلية التّشاكل باعتبارها إجراء سيميائيا ناجعا في تحليل النّصوص الشّعرية، فقد لوحظ أن "ما النافية" تتشاكل تشاكلا دلاليا مع "لا الناهية" التي ظهرت في بداية المقطع وأقرّت بحجم فاجعة الهزيمة الحزيرانية العربية. وفي هذا الإطار يمكننا الإحاطة بثلاثة مدلولات لـ "ما" النافية نعرضها كالآتي:

1- **المدلول الأول:** إدانة الفرد العربي والتأكيد على مواجهته بحجم عيوبه.

2- **المدلول الثاني:** التأكيد أن الهزيمة لم تكن هزيمة سياسية فحسب بل هي هزيمة اجتماعية ونفسية.

3- المدلول الثالث: التأكيد على أن الاجتياح اليهودي للأراضي العربية لم يكن عن طريق الحدود المشتركة وإنما اجتياحهم تم من خلال عيوبنا مثل تفرقنا بدل توحدنا وإيماننا الواهي بأن أسباب فشلنا هي دائما خارجة عن إرادتنا ونطاقنا.

4- تأكيد حتمية الرفض والغضب، وتحويله من حتمية رفض وغضب على مستوى البنية الظاهرة للمقطع إلى حتمية موقف وقرار على مستوى البنية العميقة، قرار صارم تبناه الشاعر قصد استغلال الحاضر الانهزامي في بناء مستقبل نوعي قاعدته (أن الفشل هو السبيل الوحيد إلى النجاح).

الموقف الثاني: تعرية الذات العربية

يقول الشاعر معبرا عن موقفه في مقطع أخر من النص:

جُلُودُنَا مَيِّتَةُ الإِحْسَاسِ
أَرْوَاحُنَا تَشْكُو مِنَ الإِفْلاَسِ
أَيَّامُنَا تَدُورُ بَيْنَ الزَّارِ . .
وَالشِّطْرَنْجِ..
وَالنُّعَاسِ..
هَلْ (نَحْنُ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)؟؟[20]

يعمد الشّاعر إلى كشف الواقع الحقيقي لنون الجماعة العربية، كما يحاول أن يقترب من الحقيقة أكثر ويحاول تعريتها دون وجل أو خجل ويدس المشرط في الجرح لينبشه حتى يخرج ما فيه من قيح فيقول: إن الإنسان العربي أصبح على درجة كبيرة من البلادة والبرود الشعوري والإفلاس الروحي واستسلم ... للدجل والشعوذة من لهو ونوم ونعاس وحسبنا أن نتشدق بمآثرنا وأمجادنا هل نحن حقا من قال فينا الله تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[21].

تكمن قوة دلالة المقطع فيما تطرحه الألفاظ من أبعاد دلالية ترميزية؛ إذ «لا وجود لألفاظ مستقلة بمفردها، ولا تشتغل الألفاظ وحيدة بمعزل عن بقية الألفاظ، إذ لا بد من علاقة رابطة بين لفظ وآخر، وهذا يعني أن ثمة لفظين متزامنين، وأن ثمة علاقات بين هذين اللفظين»[22].

إنّ إرجاع الجلود إلى وظيفتها الطبيعية لن يكون غير الإحساس، أما موت إحساسها وبرودتها وإفلاس الأرواح والتفكير واستبدال العلم بالجهل وتصغير الوقت لمحاربات تافهة والكف عن مواجهة الحياة والوقوف في وجه الصعاب كلها سمات معادلة للجمود والركود والجهل وهي الدوال التي تمثل باجتماعها غاية الخطاب ببعديه الرمزي والسياسي، الواقعي والشعري، كما أنّها تمثّل السّمات التي تبين مستوى التخلف الفكري لضمير الأمة العربية التي حكمت على نفسها بالعيش داخل خرقة بالية، ولصد هذا التحول السلبي لوضع الأمة العربية التي فضلها الله على باقي الأمم فقد تم استثمار التناص القرآني بصيغة الاستفهام الاستنكاري في آخر جملة من المقطع (هل نحن خير أمة أخرجت للناس)، «ويعني التناص مع القرآن الكريم استدعاء دواله ومدلولاته والتفاعل معها وإعادة تحويلها في نص معفى حتى تغدو جزءا من مكوناته وشبكته النحوية والدلالية فتكتمل حينئذ الدلالة بين النصين ويغدوان نصا واحدا» [23].

ويمكن تمثيل حالة (الجلود الميّتة الإحساس) و(الأرواح المفلسة)، و(الأيام التي تدور بين الزار والشعوذة، والنعاس)، وهي معان مجازية، تشير بطبعها إلى بداية العد التنازلي لمجد الأمة العربية، ولتمثيل التحول السلبي لوضع المجتمع العربي إثر النكسة فقد تم اقتراح الخطاطة (أ).

المدلول المتشظي: ونقصد به تشظي الذات العربية وفقدانها المقومات الأساسية التي تسهم في تكوين الشخصية إذ يحيل موت الإحساس في تعبير الشاعر إلى تعطل الضمير والعقل، ويحيل ميلاد الإفلاس، إلى إفلاس روحي ومادي للفرد العربي.

كما تحيل الأيام التي تدور بين الزار، والشطرنج، والنعاس، إلى إفلاس على مستوى التفكير العربي، وتتشاكل ثلاثتها دلاليا لتفضي إلى ما سبق ذكره (العد التنازلي لمجد الأمة العربية).

- **الخطاطة** (أ)

العلامة	الدال الثابت	المدلول المتشظي	
جلودنا	حياة الإحساس	موت الإحساس	تحول
أرواحنا	الغنى	الإفلاس	المسار
أيامنا	الفضيلة	الرذيلة	الدلالي
نحن	خير أمة	آخر أمة	السيميائي

يتشاكل دلاليا مقوم الجلود الميتة مع الأرواح المفلسة كما يتشاكل موت الإحساس مع ميلاد الإفلاس ويتشاكل هذا الأخير مع الرذيلة، وتفضي هذه التشاكلات إلى دلالات مختلفة تنتج في النهاية تحول المسار السياسي لمستقبل الوطن والأمة العربية، نمثلها بالشكل الآتي:

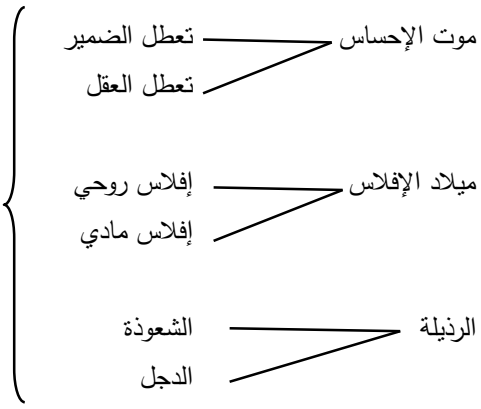

الموقف الثالث: الثورة على الحكام (السلطان) المطالبة بالحرية

يقول الشاعر:

لَوْ أَحَدًا يَمْنَحُنِي الأَمَان
لَوْ كُنْتُ أَستَطِيعُ أَنْ أَقابِلَ السُّلطَان
قُلْتُ لَه
يَا سَيِّدِي السُّلْطَان كَلَّا بِكَ المُفْتَرسَات مَزَّقَتْ رِدَائِي
وَمُخْبِروكَ دَائِمًا وَرَائِي

...

يَا حَضْرَةَ السُّلطَان
لِأَنَّني اقْتَرَبْتُ مِنْ أَسْوَارِكَ الصَّمَّاء
لِأَنَّني حَاوَلْتُ أَنْ أَكْشِفَ عَن حُزْنِي وَعَنْ بَلاَئي
ضُرِبْتُ بِالحِذَاء

...

يَا سَيِّدِي السُّلطَان
لَقَدْ خَسِرْتَ الحَرْبَ مَرَّتَيْن
مَا قِيمَةُ الشَّعْبِ الَّذي لَيْسَ لَهُ لِسَان
لِأَنَّ نِصْفَ شَعْبِنَا مُحَاصَر كَالنَّمْلِ وَالجُرْذَان
دَاخِلَ الجُدْرَان[24]

أبدى الشاعر اهتمامه بالنفاذ إلى معرفة الأسباب الأصلية التي تحالفت وأدت إلى الهزيمة، إلا أن معرفة الأسباب وحدها أمر غير كاف لذلك شرع الشاعر في التنقيب عن مصادرها التي تعود بالدرجة الأولى إلى سياسة القمع التي يتبعها الحاكم بغرض كبت الحريات الفردية. ثم ينتقل الشاعر من مرحلة جلد الذات المحكومة إلى الثورة على الذات الحاكمة، وهو تحول نوعي يحدث على مستوى البنية العميقة للنص تحدده نبرة الخطاب التي ارتفعت فجأة دون سابق إنذار. وهي نبرة شرطية في ظاهرها وفي باطنها السيميائي أداة امتناع تبدأ بأداة الشرط "لو "التي تكررت في جملتي مطلع المقطع. وقد أدخلت فاتحة جملة الشرط الأولى والثانية تغييرا كبيرا على النص إذ يتراءى لك كأنه نص محايد لا علاقة له بما سبق ذكره.

إن فقدان الأمان هو شكل من أشكال قمع الحريات الفردية، وهو السبب الرئيسي في فشل الأنظمة العربية ففي الواقع «لا شيء يمكن أن يتحول إلى قيد على حرية الإنسان وشخصيته، إذ لا يرى حلا للمجتمع العربي والإنسان العربي إلا في توفير الحرية، وقد كانت الهزيمة هي الشرارة التي فجرت الشاعر ضد الحكام العرب وكشف أسباب الهزيمة الأساسية»[25].

يعد السلطان هو العلامة المحورية التي يتمركز حولها المعنى الظاهر والخفي للمقطع، كما يعدّ السلطان السيد الأول والحاكم المبجل «ويظل المفهوم المركزي الذي تتمحور حوله كل القضايا التي تطرحها الكتابة السياسية السلطانية»[26].

أما بالنسبة للنص فالسلطان هو العلامة المحورية التي ترصد كل دلالات النص بما «أن الشعر يعبر عن مفاهيم وأشياء تعبيرا غير مباشر. وباختصار إن القصيدة تقول شيئا وتعني شيئا آخر»[27] ؛ فإن السلطان في موضوعه السياسي هذا ما هو إلا صورة حاضرة لأخرى غائبة؛ فهي ولا شك صورة الحاكم المستبد الذي يسعى بكل ما يملك من سلطة إلى قمع الرعية، كما يمكن عدّ الضمير المفرد صورة حاضرة تماثل صورة غائبة هي الرعية التي حرمت من حق الحرية، والشاعر واحد منها «لا يملك الشاعر أمان الكلمة وتأتي روعة استخدام الأداة "لو" في هذا المكان والتي تفيد امتناع قول الشاعر عمّا يريد لامتناع الأمان، ثم الاستفهام في البيت الرابع الذي يوضح بلا شك أن الفرد المهان لا يمكنه أن يجلب نصرا للأمة، ولذلك يصور الشاعر حال الدولة البوليسية وما يعتريها من القمع والاستبداد والتي يقع معظم العرب تحت قبضتها» [28].

تمثّل جملة الشرط التي تعقب جملة جواب شرط حيزا سيميائيا تسبح فيه كل المدلولات الظاهرة والخفية المستوحاة من مقامات البوح لمادة الخطاب التي تفضي في النهاية إلى تحميل السلطان مسؤولية ما حدث للوطن والرعية معا. فالوطن مسلوب الأمان والشّعب مسلوب اللسان. أما السلطان فما هو بإنسان.

يطرح الجزء الأخير من المقطع طرحا دلاليا دسما لواقع حكم السلطان يقول:

مَا قِيمَةُ الشَّعْبِ الَّذي لَيْسَ لَهُ لِسَان
لأَنَّ نِصْفَ شَعْبِنَا مُحَاصَر كَالنَّمْلِ وَالجُرْذَان
دَاخِلَ الجُدْرَان. (29)

لم يقصد الشاعر باستثماره لرمز السلطان «الضيق المتمثل في تسلط السلطان المادي أو الفعلي على رعيته من قبيل إجحافه بكثرة الجبايات أو ممارسة التعذيب والتنكيل وقطع الرؤوس متى أينعت وحان قطافها...» (30). كما أنه لم يقصد من وراء رمز السلطان إلى عرض أشكال الاستبداد والضغط واستغلال ما لا يحق استغلاله، وإنما قصد بذلك «مجموعة من الصور والحالات والأشكال والقواعد والأوضاع المعبرة التي تجعل من السلطان الكائن الأول في مملكته مطلقا ومفردا في سلطته إلى حد يصبح معه قريبا من تلك الصورة التي رسمها هيغل w.F.Hegel أو مونتسكيو Montesquieu لـ المستبد الشرقي»(31).

حين نأتي إلى المقطع الشعري لنستخرج صور السلطان المستبد التي قصدها الشاعر في خطابه؛ وهي صور منتزعة من واقع تسلط السلطان واستبداده بالشعب، وقد تم استدعاؤها من واقع صراع الفرد باعتباره بنية هشة مع الحاكم (السلطان) كونه البنية الأقوى التي تمتلك حق تفعيل القرار، ولذلك ارتأينا تمثيل كل هذه الدلالات في شكل خطاطة من ثلاثة أقسام؛ القسم الأول يضم الجملة في الخطاب، ونعني بها دلالات استبداد السّلطان بالشّعب إذ أصبح في نظر الشاعر شعبا أخرس ضعيفا مثل النمل والجرذان، ثم قابلناها في القسم الثاني بمدلولاتها في الخطاب إذ صورة الشعب الذي ليس له لسان تعني مصادرة الكلام من قبل السلطة العليا وهو شكل من أشكال الاستبداد الجزئي. الذي يدلّ على مصادرة حرية الفكر وفكر الحرية وهو شكل من أشكال الاستبداد الكلي. نوضحها في الخطاطة (ب):

- **الخطاطة (ب)**

الجملة في الخطاب	**الصورة في الخطاب**	**البعد السيمي للصورة**
1- ما قيمة الشعب الذي ليس له لسان. 2- لأن نصف شعبنا محاصر كالنمل والجرذان.	1- مصادرة الكلام. 2- مصادرة حرية الفكر وفكر الحرية.	1- استبداد جزئي. 2- استبداد كلي.

الموقف الرابع: التنديد بقمع حرية الفكر والتعبير

يعد هذا الموقف القضية المحورية التي كرس لها نزار حياته وشعره، في قصائد كثيرة، فقد «كان ينادي بمجابهة الظلم والقمع المستمر ومجابهة عمليات غسل الدماغ المستمرة على دماغ الإنسان العربي. وكان يرى أن

حياتنا السياسية العربية لا تحتمل الرمز والتمويه والمواربة فالناس الذين نخاطبهم لا يحتملون الرمز لأن قضايانا واضحة، وتخلفنا واضح لذلك يجب أن نجابه الأمور بصراحة ووضوح كما هي» (32).

ومن بين قصائده السياسية التي تضمنت مثل هذا الموقف قصيدة بعنوان" أحمر...أحمر...أحمر "إذ يعد العنوان في حدّ ذاته علامة سيميائية تامة من علامات محاربة القمع والدعوة إلى الحرية واحترام شخصية الفرد داخل المجتمع والمطالبة بخلق فضاء من الحرية يشمل جميع الأفكار؛ ما تشابه منها وما اختلف.

يقول الشاعر:

لاَ تُفَكِّر أَبَدًا .. فَالضَّوْءُ أَحْمَر
لاَ تُكَلِّم أَحَدًا.. فَالضَّوْءُ أَحْمَر
لاَ تُجَادِل فِي نُصُوصِ الفِقْهِ، أَوِ فِي النَّحْوِ، أَوْ فِي الصَّرْف
أَوْ فِي الشِّعْرِ أَوْ فِي النَّثْرِ
إِنَّ العَقْلَ مَلْعُونٌ، وَمَكْرُوهٌ وَمُنْكَر (33)

استثمر الشاعر رمز اللون الأحمر في التدليل على سياسة القمع و كبت الحريات الفردية داخل المجتمعات العربية وهي عبارة عن تيارات إيديولوجية تسعى إلى إقصاء و تهميش السلطة الدنيا المتمثلة في الأفراد من أجل سيادة السلطة العليا المتمثلة في الحكام؛ «إذ الألوان علامات رمزية حاملة لدلالتها في ذاتها بفضل ثقافة المجتمع الذي يستخدمها، وحين يتم توظيف الألوان في خطاب لغوي تكون دلالة الخطاب اللغوي محمولة أصلا على الدلالات الرمزية للألوان المستخدمة» (34).

إن المقطع كله عبارة عن إشارات حمراء مفادها أن كل شيء أصبح محظورا وممنوعا، إذ يعد المحظور والممنوع ترجمة فعلية لإحدى دلالات اللون الأحمر التي تتناسب مع دلالة المشهد الشعري للمقطع.

يتضح من خلال البنية السطحية للمقطع وجود تشاكل دلالي بين دلالة الضوء الأحمر ودلالة النهي الواردة على مستوى الجمل الفعلية المسبوقة باللام الناهية، إذ النهي في معظم استعمالاته يحمل دلالة الممنوع الناتج عن مصدر قوة أو سلطة عليا بصلاحية الأمر والنهي، وهو ما تلح عليه الذات الحاكمة من خلال تأكيدها في الجملة الأولى والثانية والثالثة، بل إنها تسعى إلى إضمار حرية الفرد عبر مساحة الضوء الأحمر، ويمكن تمثيل ذلك بمستويات سيميائية يتم فيها الانتقال من النهي إلى القطع والجزم بأمر النهي.

- **المستويات السيميائية:**

المستوى السيميائي الأول:

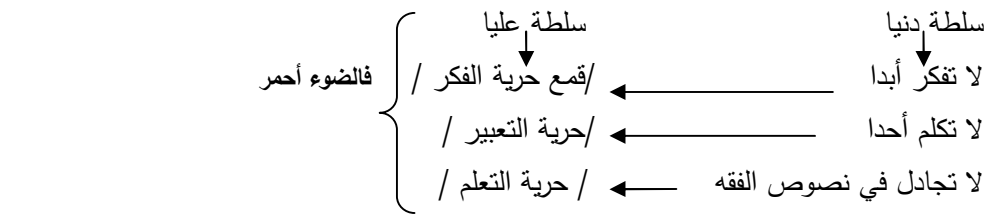

المستوى السيميائي الثاني: تحيل أدوات النهي المستعملة في الجمل الأربعة إلى تجمع خطابي عميق يجمع بين رغبة الفرد التي تتعارض كليا مع رغبة الحاكم؛ إذ يجسد حالة صراع مطلقة بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة التي هيمنت على حرية الفرد العامّة.

- **تمظهرات سيميائية للمعنى**: تنتظم هذه العلاقات بين هاتين الطبقتين وفقا للصراع المبني في أساسه على التضاد بين ما يرغب فيه الفرد باعتباره سلطة دنيا وبين ما يرغب فيه الحاكم باعتباره سلطة عليا، وعلى هذا الأساس اخترنا المربع السيميائي لغريماس لتمثيل هذه العلاقة القائمة على أثر فعل الأمر بالنهي.

تعد علاقة التضاد هي التجلي الدلالي لجزء ولو بسيط للمدلول الذي تتحكم في تجليه مجموعة العلاقات الممتدة على مستوى سيمات المربع السيميائي، وبناء على هذه الافتراضات نعرض هذه العلاقات كالآتي:

المستوى الأفقي .....علاقة تضاد.

المستوى الوسطي..... علاقة تناقض.

المستوى السفلي .....علاقة تضاد.

أ- تتضاد العلاقة الأولى بين الفرد والسلطان وتعكس ما يعادل تناقضا بين الحرية والقمع.

ب- تتضاد العلاقة الثانية بين الحرية والقمع من منطلق أن الحرية رغبة فردية موجبة والقمع رغبة جماعية سالبة، فتفرز في النهاية علاقة السلب.

جـ- يتشاكل الفرد في علاقته بالحرية تشاكلا كليا، فتفرز علاقة موجب.

د- يتشاكل السلطان مع مفهوم القمع تشاكلا كليا فيفرز علاقة موجب.

يمكن أن يظهر استثمار المربع السيميائي الدّلالات المتشاكلة في المقطع، بمستوييها الفكري والدلالي، وكذا يمكن اقتراحه وفق هذه الطريقة:

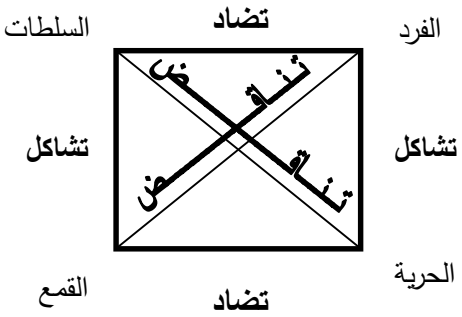

يتجسد صراع الطبقتين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة من خلال سلطة القمع ورغبة الحرية اللذين تجمعهما علاقة تناقض. فأما القمع فهو سلطة فوقية، وأما الحرية فهي رغبة ذاتية، مصدرها فعل إدراكي نابع من الذات الباطنة، «ويفهم من التناقض العلاقة التي تقوم على أثر الفعل الإدراكي بالنفي بين عنصرين حيث يكون العنصر الأول مطروحا فيقصى بواسطة هذه العملية ليحل محله العنصر الثاني، فهو يتضمن غياب عنصر آخر» [35]. وعليه فإن حضور القمع يمكن أن يقصي الحرية، كما أن المطالبة بالحرية يمكن أن تقصي عنصر القمع.

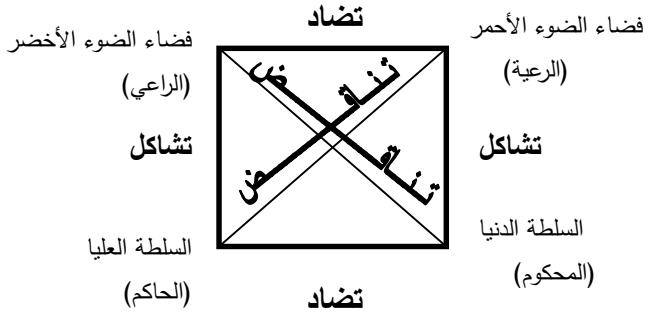

خاتمــة

إنّ التّعاطي مع شعر نزار في المرأة أو في الوطن والحرية، أو في السياسة هو بالأحرى تعاط مع الكثير من المرجعيات الفكرية والثقافية والأيديولوجية التي ساهمت في بناء الصورة الواصفة للخطاب؛ لأن مضمون هذا الأخير هو عبارة عن جملة هذه المرجعيات التي يتم تداولها عبر مراحل مختلفة من حياة الفرد.

حقا إنها مسيرة طويلة، وطريق حافل بالأحداث اختاره نزار مستبدلا السكوت بالغضب، والقبول بالرفض، والمجاملات بالنقد والهجاء، وكشف الحقائق، والدفاع عن مقومات الأمة العربية، والاقتراب من واقع السياسة ساعيا إلى ربط التجربة الشعرية بالواقع، وتقريبها أكثر من القارئ، والاقتراب بها من هموم شعبه، وملامسة جراحهم ومشاركتهم أفراحهم. وقد ألزم الشاعر نفسه بمتابعة تطورات حركة الأحداث السياسية العربية، عبر مراحل مختلفة، فأما المواقف التي سبق ذكرها فهي غيض من فيض لأن خطابه جاء زاخرا بالمواقف السياسية النابعة من المعرفة الحقّة بواقع المتغيرات السياسية للوطن العربي، فعندما حدثت نكسة حزيران شحذ الشّاعر قلمه، وسخّر مفرداته ليبدأ مرحلة جديدة من عمر تجربته الإبداعية، ألا وهي مرحلة الشعر السياسي؛ إذ تعد مواقفه السياسية ردة فعل قوية لمعاناة حقيقية طيلة سنوات من التقلبات السياسية على أرض البلاد العربية، بل إنها صور لواقع مرير وصراع أيديولوجي، حرص فيه الحاكم العربي على التمسك الشديد بالسلطة، وممارسة جميع أساليب القمع المباشرة وغير المباشرة، التي لا تتماشى مطلقا مع رغبة الفرد الذي يطمح في أن يحيا حرا.

حقق نزار قباني نجاحا كبيرا في ميدان الشعر السياسي مثلما حقق نجاحا في مجال الشعر الوجداني الذي نعت فيه بشاعر المرأة والحب، وظلت القصيدة السياسية تسير جنبا إلى جنب مع كل المراحل السياسية التي مر بها الوطن العربي تتأرجح بين الغضب والرفض والهجاء والثورة، الأمر الذي أثار غضب بعض النقاد ورجال الإعلام عليه، مثلما أثار إعجاب البعض الآخر، بدليل أن بعض النقاد فسروا مخاطبته القاسية للحكام العرب على أنها نوع من الجلد الذاتي لهم.

أما فيما يخص المنهج فإن المقاربة السيميائية للشعر تتطلب منّا الكثير من التأمّل في أوضاع الخطاب الشعري عامة، والقبّاني على وجه الخصوص، نظرا إلى تعدد قضاياه السياسية التي تعلقت دوما بمستقبل الفرد ومستقبل الأمة العربية وواقعها السياسي.

إن استثمار المقاربة السيميائية أمر يترتب عنه النفاذ إلى مجاهل النص ومعرفة خباياه وأنظمة علاقاته ودلالات علاماته بالرغم مما يعتري الشعر من غموض وإبهام وإيحاء وترميز، ولعله السبب الذي يعوزنا دائما إلى إثراء قدرتنا على التلقي والاستعداد التام لمواجهة ما تحمله العلامات من زخم دلالي فياض. وتتمركز المقاربة السيميائية للنصوص الشعرية غالبا حول العلامة بغرض اكتشاف قوانينها وطبيعة علاقاتها داخل النص، لذلك فإن نجاعتها أمر مقرون بالقراءة والتأويل، كما تفضي إلى معرفة الكيفية التي تم بها تقديم الصور الشعرية وارتباطها بمستويات القول النصي، ومن ثم فإن المقاربة السيميائية لمواقف نزار السياسية تهدف إلى تبيان مستويات دلالية سيميائية كثيرة تمتد خلف ظاهر لغوي وباطن سيميائي خفي.

لقد تم ظهور كل من دال الغضب والرفض، ودال الثورة على الحكام ودال التنديد بقمع حرية التفكير صورا ساطعة من تجليات الواقع السياسي العربي.

وهكذا استمر نزار في منهجه الشعري السياسي لا يجامل أحدا، ولا يرمي الورد على أحد. وإنما مهاجما منتقدا ما صح انتقاده، وهجاؤه حتى نقف أكثر على مواقفه السياسية المتعددة فإنه يستوجب منا البحث في متون دواوينه

السياسية– التي احتوت على أشعار كثيرة يصعب رصدها في هذا المقام –للتحقق من هذا الأمر والتقرب أكثر من شاعر الوعي والسياسة نزار قباني.

الهوامش:

1- نضال نصر الله، نزار قباني قصائد كانت ممنوعة، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط1،2004، ص 73.

2- أحمد تاج الدين، نزار قباني والشعر السياسي، الدار الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1،2001، ص 61.

3- المرجع نفسه، ص 21.

4- عصام خلف، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2003، ص 52.

5- المرجع نفسه، ص 43.

6- محمد إقبال مروى، السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر مج 24/ عدد 3، المجلس الوطني للثقافة والفنون، دولة الكويت، مارس 1997، ص 195.

7-إمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 126.

8-المرجع نفسه، ص 126.

9-عصام خلف، الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، ص 18–19.

10-سيمياء الخطاب الشعري من التشكيل إلى التأويل (قراءات في قصائد من بلاد النرجس)، إعداد وتقديم ومشاركة: أ.د. محمد صابر عبيد، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمن الأردن، 2009–2010، المقدمة، ص 10.

11-عبد الله محمد الغذامي، تشريح النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية،2006 ، ص 78.

12-منذر عياشي، العلا ماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 45.

13-جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: عبد الرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2004، ص 95.

14-أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: د.أحمد الصمعي، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، تشرين الثاني، نوفمبر، 2005، ص 460.

15-جهاد فاضل، نزار قباني، فتافيت شاعر، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1989، ص 12.

16-صلاح فضل، تحولات الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 73.

17-نزار قباني، الأعمال الشعرية السياسية الكاملة، ج3، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ص 80، 81، 82.

18-جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمان بو علي، ص 66.

19-أحمد تاج الدين، نزار قباني والشعر السياسي، ص 42.

20-نزار قباني،الأعمال الشعرية السياسية الكاملة، ج3، ص 86.

21-سورة آل عمران، الآية 10.

22-عصام واصل، في تحليل الخطاب الشعري، دراسة سيميائية، دار التنوير،الجزائر، ط1، 2013، ص 49.

23-المرجع نفسه، ص 91–92.

24-نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص 92.

25-عبد الرحمن الوصيفي، نزار قباني شاعرا سياسيا، دار الفكر الحديث، القاهرة ط2، ص 275.

26-عز الدين العلام، الآداب السلطانية، دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 121.

27-عصام خلف، المرجع السابق، ص 52.

28-عبد الرحمن لوصيفي، المرجع السابق، ص 274.

29-نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ص 92.

30-عز الدين العلام، الآداب السلطانية، دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، ص 122.

31-المرجع نفسه، ص 122.

32-المرجع نفسه، ص 123.

33-نزار قباني، الأعمال السياسة الكاملة، ج6، ص 136.

34- محمد فكري الجزار، سيميائية اللون في رسائل المجلس العسكري، أرشيف مرسلة من طرف محمد فكري الجزار في صفحتين بتاريخ الخميس3 نوفمبر 2011

https://ahmolatthamAlbadawy.com

35- عصام واصل، في تحليل الخطاب الشعري، دراسة سيميائية، ص 56.